بين الكتاب و "إسماعيل" والسبعينيات علاقة

تواجه الشعرية العربية الحديثة كثيرا من الانتقادات من أهمها أنها منبتة الصلة عن تراثها، وتسعى للتمرد والعصيان فى وجه الأب وقتله أحيانا، واتهمت – كذلك – بأنها حركة مارقة، استند متهموها – فى نعتهم – إلى استخدامها مفردات التجاوز والتخطى والاستياق والتمرد والخروج على المؤسسة وتقاليدها المستقرة البالية، وربما تكون كذلك ولكن فى إطار يخلق وجودا فكريا وجماليا يحقق حضور الذات فى لحظة راهنة، ويضمن حضورها فى الأصل لا فى الصورة الباهتة.

وقد اختلفت علاقة الأبناء بالآباء وخصوصا فى العقدين السابقين – فى تيار الحداثة الشعرية العربية قربا وبعدا، ولم يتنكر الأبناء لهذه العلاقة الشرعية، بل اعترفوا بها صراحة فى توجهاتهم النظرية وممارساتهم الشعرية، فالشاعر "حلمى سالم" – وهو أحد أقطاب إضاءة ٧٧ – يؤكد هذه العلاقة، ويرد على متهميهم بكتابه "هيا إلى الأب"[٦٢]، وهو عبارة عن مجموعة مقالات تدور حول القطيعة والاتصال فى الشعر، فيقول عن تأثرهم وتواصلهم مع "أدونيس" : "إننا لا نرى غضاضة كبيرة فى أن نكون أدونيسيين إذا كان المقصود هو المعنى الاصطلاحى على أننا نفرق – فى هذه المسألة الأدونيسية – بين المنهج والمذهب: المنهج فى هذا الصدد الشعرى هو التجريب المتواصل والشجاعة الشعرية الدائمة والجرأة على النبش والاقتحام الجمالى لكل مجهول ومحرم ومغلق. ونحن

باعتمادنا هذا المنهج إنما نعتمد – فى الحق – جوهر الفن باعتباره ظاهرة اقتحام مفتوحة. أما المذهب فى هذا الصدد الشرعى فهو ما ينتج عن ذلك المنهج المقتحم من نتائج، أى من أعمال شعرية وطرائق فنية خاصة. نحن إذن قد نتفق مع أدونيس فى (المنهج الجمالى) ولكننا نختلف عنه فى المنتوج الشعرى بمعنى أننا نصطنع أداة واحدة، لكننا نصل – أو نحاول أن نصل – إلى إجابات مختلفة فى بناء العمل الشعرى إدراكا منا بأن قيمة الشاعر هى فى تفرده وتميزه الفنى"(٦٣).

والمتأمل فى تجربة الحداثة الشعرية/ للسبعينات فى العالم العربى عامة وفى مصر خاصة يرى خطوط التماس والاتصال/التأثر مع اجتهادات أدونيس وتجاربه خصوصا فى علاقته باللغة من حيث استخداماتها وطريقة بنية النص وتشكيله جماليا واستغلال البنى البصرية بطريقة جديدة.

ودراستنا للخطاب الشعرى من منظور "الالتفات البصرى" تؤكد ما نذهب إليه من تماس واتصال لهذه العلاقة بين "أدونيس" وجيل الحداثة الشعرى فى مصر، فهناك علاقة من حيث انبناء النص بصريا بين أعمال "أدونيس" – خصوصا (الكتاب) وديوان الحصار – وأعمال هذا الجيل، فمثلا يتبنى رفعت سلام فى ديوانه "إشراقات" الطريقة نفسها التى استخدمها أدونيس فى قصيدة "إسماعيل"(٦٤).

ولأن قصيدة "إسماعيل" ليست موضع الدراسة فإننا نقدم جزءا منها لنشير إلى هذه العلاقة التى تعتمد طريقة واحدة من حيث تشكيلها وطريقة إخراجها.

إسماعيل

متدثرا بدمى، أسير – تقودنى
حمم ، ويهدينى ركام،
بشر تموج حشودهم
طوفان ألسنة: لكل عبارة
ملك، وكل فم قبيله.
.....وأنا الذى نبذته كل قبيلة(١)

وخرجت تحضننى الجراح، وأحضن الأرض القتيله،
ابنى خيامى فى دمى
وأقول لاسمى أن يلم دفاترى

(١) يمشى وحيدا ،
يمشى أمام زمانه.

من بيت إسماعيل[٢]/

(إسماعيل يطفو
صحراء[٣] من كتب تموت، وفوقه
قمر تقلد سيفه
ومضى يجر نياقه....)
/..... وأنا الذى نبذته كل قبيلة[٤]
أتسقط الشرر الدليل . بنات نعش
يرقدن فى زغب الظلام/ رأيت وجهى شامة
فى ضوئهن ، رأيت موتى
طيرا على كتف الظلام،

(٢) لو كان إسماعيل حقلا، لسكبت غيمى فوقه، لو كان إعصارا لكنت لعصفه أفقا، وكنت خليله...

(٣) صحراء – عقد من رمال، والقوافل خيطه...

(٤) عبثا تسائل عن صديقك/ مات،
والبيت الذى آواه مات/ احفر طريقا
للقائه، فى قلبك الباقى – ولكن
أتظن أن القلب يبقى؟

والرمل يرجّل الكلام

فى الجانب الشرقى من نهر الفرات لقالق
حملت مفاتيح الرحيل، وقوضت
أعشاشها،
فى الجانب الغربى، ينهض هيكل –
ثديان ينتفخان قشا.

/..... وأنا الذى نبذته كل قبيلة
هوذا تفرقنى يداى/ دمى يحاربه دمى
جسدا يمزق فى جسد
والحب لا أحد ، وموتى لا أحد(٥)

من أنت ؟ (٦) يصرخ بى حطامى
ويكاد ينكرنى كلامى.

(٥) لا ماء يعرف أين صحرائى، وكيف أذوقها.
(٦) ألقى بأسئلتى ولا ألقى جوابا... (٦٦).

يستطيع القارئ – من خلال قراءته لنص سلام ونص أدونيس – أن يتبين وشائج العلاقة بينهما تلك العلاقة القائمة على الاتفاق فى المنهج الجمالى المتجاوز للمثال والنموذج، المتماهى فى شعرية التشكيل البصرى بوصفه آلية جديدة قادرة على خلق مساحات كبيرة من الإنتاج الدلالى الذى يختلف فيه جيل الحداثة ومنهم رفعت سلام عن المنتوج الدلالى الذى تخلقه تقنيات الشعرية الأدونيسية.

obeikandl.com